التصوف
وعصر الذرة والفضاء

للاستاذ محمد رشاد عطيه

فى عصر الذرة والفضاء ، حيث كاد الانسان أن يسيطر على الطبيعة ويصبح سيدها ، وفى زمن الشك واللا مبالاه حيث تعتبر الجريمة الناجحة الموفقة فضيلة ، فقد الانسان نفسه ، ولم يستطع حتى الآن أن يستردها ويكتشفها حتى يتسنى له ملك زمامها ، وهى التى وصف جهادها الصوفى الاول محمد صلى الله عليه وسلم بأنه الجهاد الاكبر ٠

فى هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ البشرية ، حيث نشهد تطورا هائلا خاطفا ، يحلو لبعض الناس أن ينادوا بالتحلل أو بالتحرر ـ كما يدعون ـ من الدين والاخلاق ، باسم المدنية والتطور ، تلك الكلمات البراقة المفلسة التى استخدمها الغرب فى استغلال الشعوب حتى الآن ٠

أقول لهؤلاء أننا فى حاجة الآن الى التصوف ومبادئه عن ذى قبل ، وستزداد هذه الحاجة كلما ارتفع التقدم وسار قدما الى الامام ، ألم يسمع السادة بأن كثيرا من المصانع فى الدول المتقدمة صناعيا الآن تدار ادارة ذاتية سواء لبعض الآلات أو المصانع كاملة ٠٠ كما أن التقدم فى فرع العلوم الالكترونية والتحكم من بعد قد قرب امكانية ادارة عدد كبير من المصانع بالانوتومية ومن مكان واحد بواسطة التحكم من بعد وباستخدام الاجهزة الالكترونية ٠ ومن هنا ستتوفر للانسان كل سبل الراحة حتى من العمل ، وفجأة سيجد الانسان نفسه تائها فى فراغ رهيب سيجد نفسه فى عصر تقدم فيه العلم على حساب القيم التى نضبت ٠ ثم سيكون الصراع بعد ذلك صراع الفكر ، ستختلط المذاهب والمبادىء ٠ وهنا تنبع حاجتنا الى الفكر الصوفى الأصيل الذى تحطمت على أسواره حتى الآن كل سهام النقد من مبادىء ومذاهب ونظريات حاولت أن تنال منه وأن تحط من قيمته ٠

اننا فى عصر العلم سنكون فى حاجة الى الاخلاق ، الى اعادة مبادئنا الاخلاقية الاصيلة الى النفوس ، وهى بلا شك أخلاق عالميـــة وضعت لكل زمان ومكان ، والصوفية بلا جدال هم الجديرون بحمل هذه الرسالة وأدائها على أكمل وجه لأنهم يتخلقون بأخلاق الصوفى الاول محمد صلى الله عليه وســـلم الذى قال عنه تعالى (**وانك لعلى خلق عظيم**) ويعملون على نشر رسالته بكل ما أوتوا من قوة متخذين من الوصية الجامعة لمحاسن الأخلاق التى أوصى بها النبى (صلى الله عليه وسلم) معاذا بقوله (يامعاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيـــانة ، وحفظ الجوار ورحمه اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الايمان والتفقه فى القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح ، واياك أن تسب حليما أو تكذب صادقا أو تطمع آثما أو توصى اماما عادلا ، أو تفسد أرضا ، أوصيك باتقـــاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر ، والعلانية بالعلانية، بذلك أدب الله عباده ودعاهم الى مكارم الاخلاق ومحاسن الآداب) .

علاوة على أن الصوفية كما وصفهم الامام السهروردى صاحب عوارف المعارف بأنهم راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجـــاهدات حتى أجابت الى تحسين الأخلاق وكم من نفس تجيب الى الأعمال ولا تجيب الى الاخلاق ، فنفوس العباد أجابت الى الاعمال وجمحت عن الاخـــلاق ونفوس الزهاد أجابت الى بعض الأخلاق دون البعض ونفوس الصوفية أجابت الى الاخلاق الكريمة كلها .

وعصرنا فى حاجة الى الحب ، الذى مزيده العملة التى تقوم عليها معاملات الأفراد والجماعات والدول ، لأن به ستختفى مثالب العصر من استغلال واستبداد وحقد وكراهية ، وسيكون البلسم الشافى لأمراض الانسان ، وآفات المجتمعات ، والصوفية ومبادئهم هم أقدر الناس على حمـــل تلك الرسالة النبيلة فقد ترنم بها روادهم الاوائل ، أمثـال رابعـة العدوية ، ومعروف الكرخى ، والمحاسبى ، والبسطامى ويحيى بن معـــاذ الرازى ، والحلاج ، وابن الفارض ، وابن عربى ..

وبهذا وبعد نهضتنا العلمية والصناعية والفكرية ، سيكون للتصوف دور هام فى اعادة مجد أمتنا العربية مهد الأديان ، والرسالات ، والأنبياء، والقادة ، وكعبة العالم الآن ، وقبلة كل أمة ترنو الى السلام ، الى الاخاء الى الحرية ، الى الحب .

محمد رشاد عطيه